فهرس مناهج البحث في العقيدة الإسلاميّة

تمهيد

المنهج النقلي المحض

مكانة المذهب الأشعري والمذهب الماتريدي بين المناهج

بعضٌ إلى أحد عشر فارقاً أساسياً

المنهج الذوقي

المنهج العلمي التجريبي

في باب العدل

في باب النبوّة

في باب الإمامة

دور النقل

عدم الاعتماد على خبر الواحد في العقيدة

خاتمة المطاف

«1»

مناهج البحث في العقيدة الإسلامية وتفوق منهج أهل البيت (ع)

الشيخ عباس علي براتي

تمهيد

العقيدة الإسلاميّة كانت ولا تزال موضع بحث ودراسة المسلمين، والباحثين عن الإسلام، وبمرور السنين والقرون ظهرت اختلافات في الآراء حول العقيدة الإسلامية، مع الاتّفاق على أن مصدرها هو القرآن والحديث، وإنما جاء الاختلاف نتيجة أسباب عديدة(1) نشير إلى بعضها:

1 - الاختلاف في منهج البحث والاجتهاد.

2 - انخراط الأحبار والرهبان في صنوف المسلمين، ودسّ قصصهم (الإسرائيليّات) في الروايات.

3 - البدع والتأويلات الفاسدة.

4 - النزعات القبلية والأهواء السياسية.

5 - الجهل وعدم العثور على النصوص.

وفي هذا المقال نحاول بيان السبب الأوّل، ونستعرض المناهج الموجودة في دراسة العقيدة، مقارنة بمنهج آل البيت (ع)، ونبيّن تفوّق المنهج الأخير.

جذور الخلافات الاعتقادية وتاريخها

ظهرت الخلافات الفكرية والعقائدية في عصر صاحب الرسالة (ص)، ولكن لم تصل إلى حدّ تكوّن المذاهب الكلامية والمدارس الفكرية، لأن النبيّ (ص) كان يعالجها بنفسه ولا يسمح لها بالاستفحال، وكانت الصداقة تحلّ محلّها، والإخاء والودّ والتعاطف يخيّم على المجتمع الرسالي بشكل لم يوجد له مثيل في التاريخ إلاّ في فترات قصيرة.

وكمثال على ذلك نشير إلى مسألة "القدر" التي شغلت بال الصحابة، ودار النقاش والحوار حولها حتى وصل إلى الجدال والمراء، وعندما سمع رسول الله (ص) أصواتهم خرج من البيت ونهاهم عن ذلك، كما جاء في كتب الحديث:

روى أحمد بن حنبل عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه قال: خرج رسول الله (ص) ذات يوم والناس يتكلّمون في القدر. قال: وكأنّما تفقّأ في وجهه حبّ الرّمان من الغضب قال: فقال لهم: "ما لكم تضربون كتاب الله بعضه ببعض؟ بهذا هلك من كان قبلكم"(2)

والقرآن والسنّة تركا للأمّة أصول العقيدة وأمّهاتها، وطرحت بعض الأسئلة فيما بعد،

1 - الدكتور أحمد محمود صبحي، في علم الكلام: ج 1، المقدمة: 46، ط 5، دار النهضة الحديثة، بيروت، 1405 للهجرة (1985 م).
2 - مسند أحمد 3: 178 - 196. |

«2»

حيث لم يكن لها جواب صريح في القرآن الكريم والسنّة الشريفة، فكانت تحتاج إلى استنباط واجتهاد، فصار ذلك من مسؤولية الفقهاء والمجتهدين في العقيدة والشريعة، ولذلك نجد الصحابة يختلفون فيما بينهم في المسائل الاعتقادية، وهناك فرقٌ بين اختلافهم في عصر الرسول الأعظم (ص) وبين اختلافهم بعد وفاته، ففي حياته كان هو الحكم بينهم وكلماته كانت تحسم الخلاف.(1) ولكن بعد وفاته كانوا يحكّمون اجتهاد واحد من الصحابة أو فئة منهم حسب اختيار الخلفاء والحكّام، وإن كان للصحابة الآخرين آراؤهم ونظرياتهم، ومن أمثله ذلك الأمران التاليان:

1 - الخلافة أو الإمامة الكبرى بعد وفاة النبي (ص).(2)

2 - قتل مانعي الزكاة وأن عملهم هذا هل أوجب الردّة؟(3)

وكان كل خلاف مبدأ نشوء آراء وطوائف ومذاهب كلامية واعتقادية، وبطبيعة الحال، فإن كل واحد منها كان يشكل مجموعة مدوّنة من الآراء والعقائد مرفقة بمنهج خاص في الاستدلال والاستنباط. وأهم المناهج - حسب ما أدّت إليه دراستنا - تنحصر فيمايلي:

1 - المنهج النقلي المحض.

2 - المنهج العقلي المحض.

3 - المنهج الذوقي والإشراقي.

4 - المنهج الحسّي والتجريبي (العلمي).

5 - المنهج الفطري.

المنهج النقلي المحض

ويعتبر الإمام أحمد بن حنبل (ت 241 للهجرة) رائداً لتلك المدرسة في ذلك الوقت، ومن أقدم شخصياتها، وهذا المنهج يمثله أهل الحديث الذين لا شأن لهم عدا المحافظة على التراث الروائي ونقله دون التدبّر والتعمّق في مغزاه، وتمييز غثّه من سمينه، وصحيحه من سقيمه، ويسمّى هذا الاتّجاه في العصور الأخيرة باسم سلفية وينحو الحنابلة في الفقه هذا المنحى. إنّ هؤلاء حرّموا الرأي والنظر في المسائل الدينية، وعدّوا السؤال بدعة، والكلام والحجاج فيها ابتداعاً وانحيازاً لأهل الأهواء، وعكفوا على دراسة السنّة دراسة خالية من التعمّق، وسمّوا منهجهم هذا اتّباعاً وغيره ابتداعاً.

وقصارى جهد هؤلاء أن يدوّنوا الأحاديث الواردة في المسائل الاعتقادية، أو أن

1 - ابن هشام، السيرة النبوية 1: 341 - 342، الدكتور محمد حميد الله، مجموعة السياسية، 1 - 7.
2 - الأشعري، مقالات الإسلاميين، واختلاف المصلّين 1: 34 و 39، ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل 2: 111، احمد أمين، فجر الإسلام.
3 - مسند أحمد 2: 196.

«3»

يبوّبوها أو يشرحوا ألفاظها أو يذكروا أسانيدها، كما فعله الإمام البخاري وأحمد بن حنبل وابن خزيمة والبيهقي وابن بطّة، وبلغ بهم الأمر إلى أن حرّموا علم الكلام والنظر العقلي في مسائل العقيدة، وأفرد بعضهم رسالة في تحريمه، كما فعل ابن قدامة في رسالته المسمّاة رسالة تحريم النظر في علم الكلام.

قال أحمد بن حنبل: لا يفلح صاحب الكلام أبداً، ولا تكاد ترى أحداً نظر في الكلام إلاّ وفي قلبه دغل. وبالغ في ذمّة حتى هُجر الحارث المحاسبي مع زهده وورعه بسبب تصنيفه كتاباً في الردّ على المبتدِعة، وقال له: ويحك ألست تحكي بدعتهم أوّلاً ثمّ تردّ عليهم؟! ألست تحمل الناس بتصنيفك على مطالعة البدعة والتفكّر في تلك الشبهات فيدعوهم ذلك إلى الرأي والبحث؟

وقال أحمد: علماء الكلام زنادقة!.

وقال الزعفراني: قال الشافعي: حكمي في أصحاب الكلام أن يُضربوا بالجريد ويُطاف بهم في القبائل والعشائر، ويقال: هذا جزاء من ترك الكتاب والسنّة وأخذ في الكلام.

وقد اتّفق أهل الحديث من السلف على هذا، ولا ينحصر ما نقل عنهم من التشديدات فيه، وقالوا: ما سكت عنه الصحابة - مع أنّهم أعرف بالحقائق وأفصح بترتيب الألفاظ من غيرهم - إلا لعلمهم بما يتولّد منه من الشرّ، ولذلك قال النبي (ص): هلك المتنطّعون، هلك المتنطّعون، هلك المتنطّعون. أي المتعمّقون في البحث والاستقصاء.(1)

وهؤلاء كانوا ينحون في العقيدة منحى التجسيم والتشبيه والقول المطلق بالقدر وسلب الحرية عن الإنسان(2).

وهذه الطائفة جوّزت التقليد في العقيدة وحرّمت النظر كما مرّ، يقول الدكتور أحمد محمود صبحي:

بما أن العقيدة لا يمكن فيها التقليد ولا يجوز، خلافاً لعبيد الله بن الحسن العنبري والحشوية والتعليمية.(3) وكذا للرازي في المحصّل.(4) ورأي جمهور العلماء على عدم جواز التقليد فيه، وأسنده الأستاذ أبو إسحاق في شرح الترتيب إلى إجماع أهل العلم من أهل الحق وغيرهم من الطوائف، وقال إمام الحرمين في الشامل: لم يقل بالتقليد في الأصول إلاّ الحنابلة. ولكن الإمام الشوكاني يعتبر التكليف بوجوب النظر في العقائد تكليفاً بما لا يطاق، ويقول بعد سرده لأقوال الأئمة: فيا لله العجب من هذه المقالة... فإنها جناية على جمهور هذه الأمّة المرحومة، وتكليف لهم بما ليس في وسعهم ولا يطيقونه، وقد كفى الصحابة الذين لم يبلغوا درجة الاجتهاد ولا قاربوها

---

1 - الدكتور عبدالحليم محمود، التوحيد الخالص، أو الإسلام والعقل: 4 - 20.
2 - الصابوني، أبو عثمان إسماعيل، رسالة عقيدة السلف وأصحاب الحديث، (في الرسائل المنيرة).
3 - الآمدي، الإحكام في أصول الأحكام 4: 300.
4 - الشوكاني، إرشاد الفحول: 266 - 267.

«4»

الإيمان الحملي... بل حرّم على كثير منهم النظر في ذلك وجعله من الضلالة والجهالة....(1)

ومن ثم، فعلم المنطق أيضاً حرام عند هؤلاء، ولا يعتبر منهجاً في الوصول إلى المعرفة البشرية، على الرغم من أن علم المنطق من أشهر المقاييس وأقدمها، وهو ما وضعه أرسطو في كتاب سمّاه أيضاً الارغانون وسمّاه علم الميزان.

وعلم المنطق في رأي أصحاب هذا الاتّجاه لا يكفي وحده لصون الفكر عن الخطأ، فإن كثيراً من مفكري الإسلام برعوا في المنطق، كالكندي والفارابي وابن سينا والإمام الغزالي وابن ماجة، وابن طفيل، وابن رشد، ولكن اختلفوا في أفكارهم وآرائهم ونزعاتهم اختلافاً جوهريا، فلا يكون المنطق ميزاناً بين الحق والباطل!

ولكن موقف هذا الاّتجاه اعتدل كثيراً تجاه علمي المنطق والكلام في العصور المتأخرة، مثلاً نشاهد ابن تيمية مضطرباً في موقفه عن علم الكلام، فلا يحرِّمه تحريماً باتّاً، بل يجوِّزه إذا دعت إليه الضرورة، واستند إلى الأدلة العقلية والشرعيّة وصار سبباً لوضع حدّ لشبه الملاحدة والزنادقة.(2)

ولكنه في الوقت نفسه يحرّم علم المنطق ويؤلّف رسالة اسمها رسالة الردّ على المنطقيّين. ويقول أتباعه: نجد ديكارت الفرنسي (1596 - 1650 م) اخترع مقياساً للفصل بين الخطأ والصواب بدلاً عن المنطق الأرسطاطاليسي، وكان يؤكّد على أنّ الإنسان لو اتّبع في تفكيره المقياس الذي اخترعه خطوة خطوة فإنّه لا مناص سينتهي إلى الصواب وستكون ثمرة السير مع المنهج الديكارتي، اليقين، ولكن انتهى الأمل في منهج ديكارت كما انتهى الأمل في منطق أرسطو بالنسبة إلى الانسان المعاصر، وبقيت المسائل التي بُحثت قبل الميلاد كما كانت.(3)

وهذا ما دفع جمعاً من المفكّرين المسلمين القدماء إلى رفض الطريقة العقلية كا هو الحال بالنسبة إلى الإمام الغزالي (450 - 505 للهجرة) في كتابه تهافت الفلاسفة، حيث هدم في هذا الكتاب آراء الفلاسفة بأدلّة عقلية، والتأمّل في كتابه هذا يشهد بأن رأي الإمام الغزالي هو: أن العقل الذي يبني هو العقل الذي يهدم.

والإمام الغزالي يثبت أن العقل الإنساني في عالم الإلهيات والأخلاق لا يتأتّى منه إلاّ ظنُون لا تصل إلى اليقين. وقد ردّ عليه الفيلسوف الإسلامي ابن رشد الأندليسى (ت 595 للهجرة) في كتابه تهافت التهافت. وابن رشد هو الذي يثبت أن العقل الصريح والنقل الصحيح ليس بينهما أيّ تعارض، وهذا ما يبدو من كتابه فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتّصال. والعجيب أنّه في هذا الموقف يلتقي بابن تيمية في كتابه

---

1 - الإمام الجويني، الإرشاد إلى قواطع الأدلة: 25، الغزالي، إلجام العوام عن علم الكلام: 66 - 67، الدكتور أحمد محمود صبحي، في علم الكلام 1: المقدّمة.
2 - ابن تيمية، مجموع الفتاوى 3: 306 - 307.
3 - الدكتور عبدالحليم محمود، التوحيد الخالص: 5 - 20.

موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول.

فكيف يمكن الجمع بين موقفي ابن تيمية هذين يا ترى؟!

إنّ منهج أهل الحديث لدى السنّة، والأخبارية لدى الشيعة(1) اتّباع ظواهر النصوص الشرعيّة من الآيات والروايات، ومحاولة اجتناب الرأي والقياس حسب الإمكان.(2)وينتشر المذهب السلفي أو مذهب أهل الحديث في عصرنا هذا في الجزيرة العربية (بلاد نجد)، وتوجد جماعات قليلة منهم في العراق والشام ومصر.(3)

المنهج العقلي المحض:

يتميز هذا المذهب باعتماده على العقل البشري كأداة للمعرفة، وهم أصحاب مدرسة الرأي في الفكر الإسلامي، وفي العقيدة يمثّلهم المعتزلة، وقد بدأ هذا المنهج من عصر مبكّر من تاريخ الاسلام، ويعتبر المؤسس الأول لهذه المدرسة واصل بن عطاء (80 - 131 للهجرة)، وزميله عمرو بن أبي دؤاد وزير المأمون العباسي، والقاضي عبدالجبار بن أحمد الهمذاني (ت 415 للهجرة)، ومن أكابرهم النظّام وأبوالهذيل العلاّف والجاحظ والجُبائيّان.

هذا الاتجاه يعطي العقل البشري قيمة كبرى ودوراً مهماً في معرفة الله سبحانه وصفاته، والشريعة الإسلامية في رؤيتهم لا يتمّ إدراكها وتطبيقها إلاّ بالعقل الإنساني.

ولكن لا يوجد لهذا المذهب في عصرنا الحاضر أتباع وأنصار بهذا الاسم، وإنما دخلت عناصر من فكرهم في المذهب الزيدي والإباضي. وبإمكاننا أن نقول إن هؤلاء مشتركون مع المعتزلة في عدّة مواقف فكرية، وتلتقي - المعتزلة - أيضاً بالشيعة الاثني عشرية والإسماعيلية في بعض الجوانب، وأهل الحديث يطلقون على المعتزلة لقب القدريّة)؛ لقولهم بحريّة الإرادة الإنسانية.

ومن أهمّ كتبهم التي جاءت فيها عقائدهم، كتاب شرح الأصول الخمسة للقاضي عبدالجبار المعتزلي، و رسائل العدل والتوحيد تأليف جماعة من زعماء المعتزلة، كالحسن البصري والقاسم الرسّي وعبدالجبار بن أحمد.

كان المعتزلة إذا واجهوا آيات قرآنية أو سنّة مرويّة على خلاف معتقداتهم يؤوّلونها، ولذلك يعتبرون من أتباع مدرسة التأويل. وفي نفس الوقت قدّموا خدمات كبيرة للإسلام وتصدّوا للهجوم الفكري العنيف المضاد للإسلام في العهد العبّاسي الأول. وقد

---

1 - الشيخ المفيد، أوائل المقالات.
2 - السيوطي، صون المنطق والكلام عن علمي المنطق والكلام: 252، الشوكاني، إرشاد الفحول: 202، علي سامي النشّار، مناهج البحث عند مفكّري الإسلام: 194 -195، علي حسين الجابري، الفكر السلفي عند الاثنا عشرية: 154 و 167 و 204 و 240 و 439. |
3 - القاسمي، تاريخ الجهميّة والمعتزلة: 56 - 57.

«6»

مال إليهم بعض الخلفاء كالمأمون والمعتصم، ولكن سرعان ما انقلب الأمر عليهم في عهد المتوكّل، وتتابع صدور أحكام الكفر والضلال والتفسيق عليهم، كما كانوا يؤذون مخالفيهم في عهد سيطرتهم على البلاط العباسي، ويعذّبون من لا يرى رأيهم.

ومن أراد التفصيل فليرجع إلى المؤلّفات الحديثة والقديمة في هذا المجال.(1)

وكان للمعتزلة خمسة أصول يعرفون بها:

1 - التوحيد، بمعنى تنزيه الله سبحانه عن صفات المخلوقين، وعدم إمكان رؤيته بالأبصار مطلقاً.

2 - العدل، بمعنى أنه سبحانه لا يظلم عباده ولا يجبر خلقه على المعصية.

3 - المنزلة بين المنزلتين، أي أنّ مرتكب المعصية الكبيرة لا مؤمن ولا كافر، بل فاسق.

4 - الوعد والوعيد، بمعنى أنه يجب الوفاء على الله في وعده بالجنّة للمؤمنين وفي وعيده بالنار للكافرين.

5 - الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أي وجوب مخالفة الحكّام الظلمة إذا لم يرتدعوا عن ظلمهم.(2)

مكانة المذهب الأشعري والمذهب الماتريدي بين المناهج

المذهب الأشعري - ويمثّله اليوم غالبية أهل السنّة في العالم - مذهب معتدل بين المعتزلة وأهل الحديث، فإن الشيخ أباالحسن الأشعري (ت 324 للهجرة) كان في بداية أمره معتزلياً وعاش على هذا المذهب قرابة أربعين سنة، ونحو سنة (300 للهجرة) أعلن على منبر الجامع بالبصرة براءته من الاعتزال، ورجوعه إلى مذهب السنّة والجماعة، وأراد أن يسلك في الجمهور مسلكاً وسطاً على الظاهر بين الطريقة العقلية للمعتزلة وطريقة أهل الحديث، وأراد أن ينتصر لأهل الحديث ولكن بنفس أسلوب المعتزلة، أعني بالاستدلال العقلي والبرهنة.

وبسبب ذلك نفاه المعتزلة عنهم ورفضه أهل الحديث، وهم إلى الآن يؤاخذونه بملاحظات أساسية يعدّونها انحرافاً جذريّاً في العقيدة، حتى أن بعض المتطرّفين منهم يكفّرونه.

وكان رجل آخر معاصرٌ للأشعري يريد أن ينتهج نفس المنهج دون أن يكون بينهما صلة ولا علاقة، وهو أبو منصور الماتريدي السمرقندي (ت 333 للهجرة)، وهو أيضاً إمام لطائفة من أهل السنّة في العقيدة، وأحياناً توجد بين آراء الزعيمين اختلافات أنهاها

---

1 - زهدي حسن جارالله، المعتزلة، ط 2، بيروت، دار الأهلية للنشر والتوزيع، 1974 م.
2 - القاسم الرسّي، رسائل العدل والتوحيد ونفي التشبيه عن الله الواحد الحميد 1: 105.

بعضٌ إلى أحد عشر فارقاً أساسياً.(1)

وأهم ميزات مدرسة الأشعري أنه كثيراً ما يتجنّب عن تأويل ظواهر الآيات والروايات ويحاول أن يهرب عن الوقوع في مهاوي التشبيه والتجسيم بالقول بلا كيف في صفات الباري، وعن مهاوي الجبر في مسألة القَدَر بقوله بالكسب، وإن كان منهجه هذا يعتبر لدى فريق آخر من العلماء عجزاً وقصوراً عن حلّ المسائل الفكرية والاعتقادية. وتدريجياً استطاع المذهب الأشعري الصمود أمام حملات أهل الحديث وانتشر في العالم الاسلامي.(2)

المنهج الذوقي

من هنا ننقل الحديث إلى اتّجاه آخر متمايز، يضع المسائل الكلامية على طاولة البحث والنقاش ويسلك فيها المسلك الرمزي الذوقي الخاص بالصوفية، وهو مسلك يختلف تماماً عن مسلك الفلاسفة والمتكلّمين القائم على العقليات ثم السمعيات. ويعتبر الحلاّج (ت 309 للهجرة) مؤسساً لهذه المدرسة في بغداد، والإمام الغزالي من أكبر روّاد هذه الطريقة، فهو يقول في كتابه إلجام العوام عن علم الكلام إن هذه طريق الخاصّة، وما دونها طريق العامّة ومن لا يفترق عنهم سوى أنّه يعرف الادلّة وليس الاستدلال.(3)

وقد أفرد بعض الباحثين كتاباً خاصاً في منهج الإمام الغزالي والصوفية في دراسة العقيدة الإسلامية.(4)

وقد نبّه على منهجه الدكتور صبحي قائلاً:

وإذا كان الغزالي قد حرّم النظر في حقيقة الذات الإلهية على العامّة، وذلك ما لا ينكره أحدٌ عليه، فانه أدرج ضمن العوام الأدباء والنحاة والمحدّثين والفقهاء والمتكلّمين، وجعل التأويل مقصوراً على الراسخين في العلم، وهم في نظره الأولياء الغارقون في بحار المعرفة، المتجرّدون عن دنيا الشهوات، وهي عبارة تعدّ قرينة لصحّة دعوى من رأى من الباحثين للغزالي معتقداً خاصّاً في الحكمة الإشراقية وفي الفيض، وفي نظرية المطاع مغايراً لمعتقده العامّ الذي أصبح به في نظر جمهور المسلمين حجة الإسلام.

ويتساءل الدكتور صبحي:

---

1 - راجع في ذلك المصادر التالية: محمد أبو زهرة، تاريخ المذاهب الإسلامية، قسم الأشاعرة والماتريدية، الشيخ جعفر السبحاني: الملل والنحل، 1، 2، 4، والفرد بل، الفِرق الإسلامية في الشمال الإفريقي: 118 - 130، أحمد محمود صبحي، في علم الكلام 1.
2 - السبكي، طبقات الشافعية 3: 391، اليافعي، مرآة الجنان 3: 343، ابن كثير، البداية والنهاية 14: 76.
3 - إلجام العوام عن علم الكلام: 66 - 67.
4 - الدكتور سليمان دنيا، الحقيقة في نظر الغزالي.

«8»

هل الراسخون في العلم هم الصوفيّة دون الفقهاء والمفسّرين والمتكلّمين؟! وإذا كان الشر قد ثار منذ فشت صناعة الكلام، ألا يفتح هذا الاستثناء المجال للصوفيّة أن يكون لهم وحدهم السبيل إلى الشطحيات والدعاوى؟! ونظريات التصوّف الفلسفي كالفيض والاشراق وأصولها الأجنبيّة واضحة، وشرورها على العقيدة الإسلامية ليست بأهون من شرور المتكلّمين.(1)

ولكن مع ذلك كلّه فقد تركوا تراثاً ضخماً في العقيدة الإسلامية على النهج الصوفي، ومن أمثلة ذلك كتاب الفتوحات المكيّة.(2)

المنهج العلمي التجريبي

هذا منهج حديث في الفكر الإسلامي، وقد تبع فيه بعضُ العلماء المسلمين في القرن الأخير روّادَ الفكر الأوربي المعاصر، ويوجد أتباعه في مصر الحديثة وفي الهند والعراق، وجميع البلدان الإسلامية الّتي احتك أهلها بالاستعمار الغربي وبالتيّارات الفكرية الوافدة من الغرب إلى العالم الإسلامي.

ولهم رأي خاصّ في أدوات المعرفة البشرية، ومن ميزاتهم الاعتماد التامّ على الأساليب الحسّية والتجريبية، ورفض المنهج العقلي القديم والمنطق الأرسطاطاليسي رفضاً باتاً، وحاولوا البحث عن المعارف الإلهية و(الميتافيزيقا) والدين بأساليب العلوم العملية والتجربة الميدانية.(3)

ومن آثار هذا المذهب الكلامي تفسير المعجزات تفسيراً مادّياً وتفسير النبوّة بالنبوغ والعبقرية البشرية، وقد أفرد بعض الباحثين دراسته لهذا الاتّجاه.(4) وتوجد أمثال هذه الآراء في آثار السيد أحمد خان الهندي(5)، وهو ممن يقترب إلى هذا الاتّجاه، وإن لم يكن بإمكاننا أن نعدّه من أتباع هذه المدرسة، وسبب تقاربه إلى هذا المنهج أنه بطرحه آراء العلماء المحدثين الغربيّين في تفسير القرآن، وحشد تفسيره بها يحاول أن يثبت أن القرآن موافق تماماً للمكتشفات الحديثة، ولا يعدو أحمد خان الهندي أيضاً القول بأن القرآن ينطبق تماماً مع معطيات العلوم الحديثة، دون أن يضع لهذه النظرية حدّاً أو إطاراً، ويبيّن الموضوع والمنهج والمرمى في المسائل الدينية والدراسات العلمية الحديثة.(6)

1 - الدكتور أحمد محمود صبحي، في علم الكلام 2: 604 - 606.
2 - راجع في ذلك: الشعراني عبدالوهاب بن أحمد، اليواقيت والجواهر في بيان عقائد الأكابر، وسميح عاطف الزين، الصوفية في نظر الإسلام، ط 3، دار الكتاب اللبناني، 1405 للهجرة / 1985 م.
3 - الدكتور عبدالحليم محمود، التوحيد الخالص، أو الإسلام والعقل، المقدّمة.
4 - الدكتور عبدالرزاق نوفل، المسلمون والعلم الحديث. فريد وجدي، الإسلام في عصر العلم.
5 - ترجمة تفسير القرآن 1: 6 - 25.
6 - راجع: محمود شلتوت، تفسير القرآن الكريم، الأجزاء العشرة الأولى: 11 - 14، إقبال اللاهوري، إحياء الفكر الديني في الإسلام، مترجم إلى الفارسية بقلم أحمد آرام: 147 - 151، السيد جمال الدين الأسد آبادي، العروة الوثقى 7: 383، روما، إيطاليا.

«9»

منهج آل البيت (ع) أو المنهج الفطري

الملامح الأصلية لهذا المنهج موجودة في تعاليم آل البيت (ع)، وهم بيّنوا للناس أن الفهم الصحيح للعقيدة الإسلامية لا يمكن بدون تطبيق هذا المنهج، وهو في الأساس مأخوذ عن الكتاب الكريم والسنّة الشريفة، حيث جاء في الكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه:

(فِطْرَةَ اللهِ الّتي فطر النّاس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدّين القيّم ولكنَّ أكثر النّاس لا يعلمون).(1)

وقد نوّه البارئ الكريم أنّ خير طريقة للوصول إلى المعارف الدينيّة هي الفطرة الإنسانية السليمة التي لم تتغيّر ولم تتبدّل بالبيئة الفاسدة وسوء التربية، ولم تنطمس بالأهواء والمجادلات، وأن أكثر الناس لا يستطيعون الوصول إلى الحقّ والحقيقة (لا يعلمون) بسبب أنّ العصبية أطفأت نور فطرتهم، والطغيان حال بينهم وبين الاهتداء بفطرتهم إلى الحقائق والعلوم الحقيقية الإلهية.

وكذلك جاءت السنّة المطهّرة لتؤكد هذه الظاهرة، فقد روي عن رسول الله (ص) أنّه قال: "كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهوّدانه أو ينصّرانه أوْ يمجّسانه"(2).

وليس منهج الفطرة بعيداً عن استخدام العقل والنقل والشهود والإشراق والطريقة العلمية، والمهمّ في هذا المنهج عدم حصره لأدوات المعرفة في واحد منها، بل استخدام كل واحد في مكانه بحسب هداية الله سبحانه وتعالى كما تحدّث عنه الكتاب العزيز بقوله:

(يمنّون عليك أن أسلموا قل لا تمنّوا عليّ إسلامكم بل الله يمنّ عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين).(3)

ويقول في آية أخرى:

(ولو لا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبداً).(4)

ومن ميزات هذا المنهج أن أتباعه يتجنّبون الوقوع في المناظرات الكلامية والشكوك والشبهات المعقّدة، ويحتجّون بأحاديث أهل البيت (ع) في النهي عن الخصومات في

1 - الروم: 30.
2 - صحيح البخاري، كتاب الجنائز، وكتاب التفسير 30، 1، قدر، 3، صحيح مسلم، كتاب القدر، ح 22، 23، 24، واحمد بن حنبل، المسند 2: 233، 275، 393، 410، 481، وج 3: 353، وراجع صراط الحق لآصف محسني.
3 - الحجرات: 17.
4 - النور: 21.

«10»

الدين والجدال، ويرون أنّ المتكلّمين الذين لم يهتدوا إلى هذا المنهج قد يصل اختلافهم في مذهب واحد على مسائل العقيدة إلى قرابة مئة مسألة.(1)

وقد يعبّر بالطينة في الروايات أهل البيت (ع) عن هذه الفطرة الّتي خلق الله الانسان عليها، وقد يعبّر عنها بالعقل المطبوع، ومن أراد ذلك فليراجع المجاميع الحديثية لشيعة أهل البيت الذين احتفظوا بتراثهم المجيد.(2)

أصول منهج أهل البيت (ع) في دراسة العقيدة الإسلاميّة

من أهمّ المباحث في العقيدة، البحث عن مصادرها. ومصادر العقيدة كما ذكرنا سابقاً تنحصر في الكتاب والسنّة، ولكن الفارق الأساس هنا بين منهج أهل البيت (ع) وغيرهم، أنهم يظلّون أوفياء لهذه المصادر، ولا يؤثرون عليها هوىً ولا عصبيّة، وإنّما يراعون في استقاء العقيدة عن هذين المصدرين الأصول العامّة للاجتهاد المأثورة عن النبيّ (ص) وعن القرآن الكريم، ومن ذلك:

1 - لا يقدّمون الاجتهاد على النصّ، إذا كان النصّ خالياً عن المعارض، أو أن المعارض لا يقوى على مقاومة النصّ، بخلاف بعض أرباب الأهواء والمذاهب، فإنّهم يريدون أن يتخلّصوا من بعض النصوص بتأويلات واهية ومبرّرات ضعيفة سنوافيك بنماذج منها، ونبّه إلى ذلك أمير المؤمنين علي (ع) في كلامه للحارث بن حوط: "... إنك لم تعرف الحق فتعرف من أتاه ولم تعرف الباطل فتعرف من أتاه".(3)

2 - ويمكن استخلاص أصل آخر من ذلك وهو: "أنّ أتباع أهل البيت (ع) لا يقدّمون على النص والرواية شيئاً، حينما يكون النص متواتراً قطعياً"، وهذا أصل هام في العقيدة الإسلامية، فإنّ الظنون والأوهام لا مجال لها في العقيدة، وهذا ما يجب أن ينتبه إليه الاتجاه السلفي الذي يقبل الروايات الضعيفة وأخبار الآحاد في العقيدة، ويدافع عنها دفاع المستميت، ويكفّر عليها المسلمين. فعليه أن ينتبه أن في الروايات صدقاً وكذباً، وعامّاً وخاصّاً، ومحكماً ومتشابهاً، وحفظاً ووهماً.(4) وسيوافيك مزيد من الشرح والإبانة عن هذا الموضوع.

3 - العقائد الإسلامية تنقسم إلى قسمين: ضروري ونظري. والضروري ما لا ينكره أحدٌ إلاّ خرج من الدين، لبداهة اندراجه في الدين: كالتوحيد والنبوّة والمعاد. والنظري ما يحتاج إلى الفحص والبرهان والشاهد والدليل، ويمكن أن يختلف فيه أرباب المذاهب وأصحاب الآراء. ومنكر الضروري يكفّر، ولا يمكن تكفير منكر النظري.

---

1 - علي بن طاووس، كشف المحجّة لثمرة المهجة: 11 - 20، مكتبة الداوري، قم، بدون تاريخ.
2 - الكليني، الكافي 1: 310، (باب الهداية) و 3: 2 (باب طينة المؤمن والكافر) ط 4، الإسلامية، طهران، 1392 للهجرة.
3 - نهج البلاغة، الحكمة: 262.
4 - نهج البلاغة، الخطبة: 210.

«11»

4 - عدم القول في العقيدة بالقياس والاستحسان.

5 - الإيمان بموافقة صريح المعقول لصحيح المنقول، بشرط مراعاة توفّر الأوصاف فيهما، ولا يعامل الظن كالقطع، ولا يؤخذ بالمنقول الضعيف، ولا بخبر الواحد مكان الصحيح المتواتر.

6 - وجوب الاجتناب عن الاجتهادات وعدم استخدام التعابير التي تعدّ من البدعة.

7 - عصمة الأنبياء والأئمّة الاثني عشر (ع) بالأدلّة القطعية، فإذا صحّ عنهم شيء وجب الإيمان به، والمجتهد قد يصيب وقد يخطئ، ولكنه إذا راعى شروط الاجتهاد وبذل جهده واستفرغ وسعه فهو معذور.

8 - يوجد في الأُمّة من يسمّى مُحدَّثاً و ملهَماً، ومن يرى الرؤيا الصحيحة ويهتدي إلى الحقائق، ولكن كلّ ذلك يحتاج إلى الإثبات، وله مجاله في العقيدة، والعمل لا يعدو عنه بوجه من الوجوه.

9 - المناظرة والنقاش في العقيدة إذا كانا بقصد الإفهام والتفهّم المقترن بالأدب والتقوى فهو أمر مرغوب فيه، ولكن على المرء أن لا يقول ما لا يعلم، وإذا وصلا إلى المراء واللّجاج ورافقا المنكرات القولية والخلقية فهو أمر قبيح يجب الاجتناب عنه صوناً للعقيدة.

10 - البدعة: ما يخترع باسم الدين دون أن يكون منه، أو يكون له أصل في الشريعة، وقد يسمّى شيء بدعة وليس ببدعة عند الإمعان والتدقيق، وقد يسمّى أمرٌ سنة وليس الأمر كذلك فيجب التثبّت أولاً ثمّ الإفتاء.(1)

11 - وجوب التدقيق والتمعّن في التكفير وما لم يثبت كفر أحد بإقراره أو بقيام البيّنة عليه بحيث لا يمكن تطرّق شبهة عليه. فلا يجوز الحكم بتكفيره، لأن التكفير موجب للحدّ الشرعي، والقاعدة في الحدّ الشرعيّ: إن الحدود تُدرأ بالشبهات، وإن التكفير من أعظم الذنوب إلاّ أن يكون بحق.(2)

12 - وجوب ردّ الخلافات إلى الكتاب والسنّة والعترة كما أمر به رسول الله (ص) ا امتثالاً لقوله تعالى: (ولو ردّوه إلى الرّسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الّذين يستنبطونه منهم ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتّبعتم الشّيطان إلاّ قليلاً).(3)

13 - منهجهم في الصفات: أن الله عزّ وجلّ حيّ لنفسه لا بحياة، وأنه قادر لنفسه وعالم لنفسه لا بالمعنى الذي ذهب إليه المشبِّهة من أصحاب الصفات والأحوال المبتدعات، كما أبدعه أبو هاشم الجبّائي، وفارق به سائر أهل التوحيد، وارتكب أشنع من مقال أهل الصفات. وهذا مذهب الإمامية كافّة، والمعتزلة - إلا من سمّيناه -، وأكثر المرجّئة،

---

1 - الشريف المرتضى، علي بن الحسين الموسوي (ت 436 للهجرة): رسائل الشريف المرتضى رسالة الحدود والحقائق.
2 - تكفير القائلين بأنّ الله تعالى صفات كان موصوفاً بمفاهيمها، وبذلك بالغوا في الإثبات إلى حدّ التشبيه.
3 - النساء: 83.

وجمهور الزيدية، وجماعة من أصحاب الحديث والحكمة،(1) فهم بذلك بين اهل الإثبات والتعطيل.

14 - يعترفون بالحُسن والقبح العقليّين وأن العقل يدرك حسن بعض الأشياء وقبحها بالضرورة.

تطبيقات لمنهج أهل البيت (ع) في العقيدة

يبرز هذا المنهج عندما يطبّق في مباحث العقيدة معلومات واضحة ومعطيات يقينية راقية، وهذه نماذج منها:

في باب التوحيد:

يعطي منهج أهل البيت (ع) في هذا الباب: التنزيه المطلق، عملاً بقوله تعالى:

(ليس كمثله شيء وهو السّميع البصير).(2)

وكذلك يثبت بها نفي الرؤية البصرية لله سبحانه وتعالى مطلقاً، عملاً بقوله تعالى: (لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللّطيف الخبير).(3)

وكذلك يبيّن عدم إمكان وصفه تعالى بصفات المخلوقين ومن قبل المخلوقين، عملاً بالآية الكريمة:

(سبحانه وتعالى عمّا يصفون).(4) والآية (سبحان ربّك ربّ العزة عمّا يصفون).(5)

في باب العدل:

نتيجة التطبيق العملي لمنهج آل البيت (ع) في العقيدة هي نفي الظلم عن الله سبحانه وتعالى وإطلاق العدل عليه، كما قال تعالى: (إنّ الله لا يظلم مثقال ذرّة).(6)

وقال: (إنّ الله لا يظلم النّاس شيئاً ولكنّ النّاس أنفسهم يظلمون).(7)

في باب النبوّة:

منهج آل البيت (ع) في مبحث النبوّة يؤدّي إلى القول بعصمة الأنبياء مطلقاً، عملاً بقوله تعالى: (وما كان لنبيّ أن يُغلّ ومن يغلُلْ يأت بما غلّ يوم القيامة).(8)

وقال تعالى: (قل إنّي أخاف إنْ عصيتُ ربّي عذاب يوم عظيم).(9)

وكذلك يعتقدون بعصمتهم في أداء الوحي، عملاً بقوله تعالى: (ولو تقوّل علينا بعض

---

1 - الشيخ المفيد، أوائل المقالات: 18.
2 - الشورى: 11.
3 - الأنعام: 103.
4 - الأنعام: 100.
5 - الصافات: 180.
6 - النساء: 40.
7 - يونس: 44.
8 - آل عمران: 161.
9 - الأنعام: 15.

الأقاويل * لأخذنا منه باليمين * ثمّ لقطعنا منه الوتين).(1)

وكذلك القول بعصمة الملائكة لقوله تعالى: (عليها ملائكة غلاظٌ شدادٌ لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون).(2)

في باب الإمامة:

كذلك يقولون في باب الإمامة بأنها عهد إلهي، ولا يصل إلى غير المعصوم، وذلك في الإمامة الكبرى، أي النيابة عن النبي (ص) في أمور الدنيا والدين، عملاً بقوله تعالى: (وإذ ابتلى إبراهيمَ ربُّه بكلمات فأتمهنّ قال إنيّ جاعلك للنّاس إماماً قال ومن ذريّتي قال لا ينال عهدي الظّالمين).(3)

وبذلك نصل إلى نتيجة وهي أن منامات الرسل والأنبياء والأئمة (ع) صادقة لا تكذب، وأن الله تعالى عصمهم عن الخطأ في الأحلام(4)

وكانت هذه نماذج من التطبيقات لمنهجهم (ع) في العقيدة.

دور العقل في الاستنباط على ضوء منهج أهل البيت (ع):

هذا المنهج متوسط بين التطّرف المعتزلي والجمود الظاهري وطريقة أصحاب الحديث.

يقول الشيخ المفيد (ره) (ت 413 ه):

ليس يضرّ الإمامية في مذهبها الذي وصفناه عدم التواتر في أخبار النصوص على أئمّتهم (ع). ولا يمنع من الحجّة لهم بها كونها أخبار آحاد، لما اقترن إليها من الدلائل العقلية فيما سمّيناه وشرحناه من وجوب الإمامة وصفات الأئمة (ع) بدلالة أنها لو كانت باطلة على ما توهّم الخصوم لبطلت بذلك العقول الموجبة لورود النصوص على الأئمة....(5)

ويقول أيضاً: فإني بتوفيق الله ومشيئته مثبّت في هذا الكتاب ما أوتر إثباته من فرق ما بين الشيعة والمعتزلة، وفصل ما بين العدليّة من الشيعة ومن ذهب إلى العدل من المعتزلة.(6)

ويقول الشيخ الصدوق، محمد بن بابويه (ت 381 ه): ... إن الله لا يدعو إلى سبب إلاّ بعد أن يصوّر في العقول حقائقه، وإذا لم يصوّر ذلك لم تتّسق الدعوة، ولو تثبت الحجّة، وذلك أنّ الاشياء، تألف أشكالها وتنبو عن أضدادها، فلو كان في العقل إنكار الرسل لما

---

1 - الحاقة: 44 - 46.
2 - التحريم: 6.
3 - البقرة: 124.
4 - الشيخ المفيد، اوائل المقالات: 41.

5 - الشيخ المفيد، المسائل الجارودية: 46، طبع المؤتمر العالمي للذكرى الألفية للشيخ المفيد، قم، 1413 ه.
6 - الشيخ المفيد، أوائل المقالات في المذاهب والمختارات.

«14»

بعث الله عزّ وجلّ نبيّاً قطّ.(1)

ويقول أيضاً: القول الصواب في هذا الباب هو أن يقال: عرفنا الله بالله، لأنّا إن عرفناه بعقولنا، فهو عزّ وجلّ واهبها، وإن عرفناه بأنبيائه ورسله وحججه (ع) فهو عزّ وجلّ باعثهم ومرسلهم ومتّخذهم حججاً، وإن عرفناه بأنفسنا فهو عزّ وجلّ محدثها، فيه عرفناه.(2)

وهذا الأسلوب من استخدام العقل، أي تشفيعه بالنقل وبالنقل وبالأئمة المعصومين لا نكاد نراه في أيّ منهج إسلامي غير منهج آل البيت (ع).

وفيما يلي نصّ رواية عن صادق آل محمد (ع) في هذا المجال:

قال الصادق (ع): "لولا الله ما عُرِفنا، ولولا نحن ما عُرف الله".(3)

ويقول ابن بابويه في شرحه: معناه لولا الحجج ما عرف الله حقّ معرفته، ولولا الله ما عرف الحُجج.(4)

موقفهم من المناظرات الكلاميّة

مرّ بنا فيما سبق أن هناك اتّجاهاً متطرّفاً ينهى عن المناقشة والمناظرة والجدل في الدين بتاتاً، وهناك منهج معتدل يفصّل ويفرّق بين أقسام المناظرة. إن منهج آل البيت (ع) في هذا أيضاً منهج وسط، وهو - تبعاً للكتاب العزيز - يُفرّق بين قسمين من الجدال: 1 - الجدال الحسن. 2 - الجدال القبيح. يقول تعالى: (أُدعُ إلى سبيل ربّك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالّتي هي أحسن إنّ ربك هو أعلم بمن ضلّ عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين).(5)

وفي ذلك يقول الشيخ المفيد (ره):

وقد أمر الصادقون (ع) جماعة من أشياعهم بالكفّ والإمساك عن إظهار الحقّ، والمباطنة والستر له عن أعداء الدين، والمظاهرة لهم بما يزيل الريب عنهم في خلافهم، وكان ذلك هو الأصلح لهم. وأمروا طائفة أُخرى من شيعتهم بمكالمة الخصوص ومظاهرتهم ودعائهم إلى الحق، لعلمهم بأنه لا ضرر عليهم في ذلك.(6)

والمقصود من الصادقين في كلامه، هم الأئمة المنصوصون من العترة النبويّة الذين شهد الله بطهارتهم في كتابه، وبرّأهم عن الذنوب والمعاصي بقوله:

(إنّما يريد الله ليُذهب عنكم الرّجس أهلَ البيت ويطهّركم تطهيراً).(7)

وأمر الأُمّة بتقوى الله وملازمتهم وعدم مفارقتهم في العقيدة والعمل بقوله: (يا أيّها الّذين

---

1 - ابن بابويه، كمال الدين وتمام النعمة، الطبعة الحجرية، طهران، 1301 ه.
2 - كتاب التوحيد: 290.

3 - المصدر نفسه.
4 - المصدر نفسه.
5 - النحل: 125.
6 - المفيد، تصحيح الاعتقاد: 66.
7 - الاحزاب: 33.

«15»

آمنوا اتّقوا الله وكونوا مع الصّادقين).(1) وهم الأئمة الذين نصّ عليهم رسول الله (ص)، وكلّ إمام منهم كان ينصّ على الإمام التالي حتى اثني عشر إماماً، وقد جاء التنويه عليهم وعلى عددهم وعلى أوّلهم في السنّة المطهّرة، ومن أرادها فليرجع إلى مظانّها.(2)

وجوب النظر في معرفة الله

وممّا يؤكّد ملازمة العقل والشرع في منهج أهل البيت (ع) ما جاء عن محمد بن علي بن بابويه (الشيخ الصدوق) (ره)، وهذا نصّه:

وأمّا استدلال ابراهيم الخليل (ع) بنظره إلى الزهرة ثم إلى القمر ثم إلى الشمس وقوله لمّا أفلت: (يا قوم إنّي بريء ممّا تُشركون)، فإنه (ع) كان نبيّاً ملهماً مبعوثاً مرسلاً بإلهام الله عزّ وجلّ إيّاه، وذلك قوله عزّ وجلّ: (وتلك حجّتنا آتيناها إبراهيم على قومه)، وليس كلّ أحد كإبراهيم (ع) ولو استغنى في معرفة التوحيد بالنظر عن تعليم الله عزّ وجلّ وتعريفه، لما أنزل الله عزّ وجلّ ما أنزل من قوله: (فاعلم أنّه لا إله إلاّ الله).(3)

يقصد ابن بابويه أن العقل لا يستطيع أن يتوصّل إلى معرفة الله بصورة تامّة دون مساعدة السمع (الوحي)، علماً بأن هذا لا يعني أن النتائج التي يتوصل إليها العقل فاقدة للاعتبار.

وكذلك الشيخ المفيد يقول بأن العقل محتاج إلى الوحي في مقدّماته ونتائجه.(4) وفي الوقت نفسه يدعم الشيخ المفيد استعمال العقل في فهم العقيدة الإسلامية ويقول: فأمّا النهي عن الكلام في الله عزّ وجلّ فانما يختصّ بالنهي عن الكلام في تشبيهه بخلقه وتجويره في حكمه.(5)

ويحتجّ على المخالفين لاستعمال العقل والنظر، ويصفهم بضعف الرأي، ويقول: "في العدول عن النظر المصير إلى التقليد المذموم باتّفاق الكلمة.(6)

---

1 - التوبة: 119.
2 - ابن عيّاش الجوهري، مقتضب الأثر في النص على عدد الأئمة الاثني عشر، ابن طولون الدمشقي، الشذرات الذهبية في أئمة الاثنا عشرية، المفيد: المسائل الجارودية: 45 - 46، المؤتمر الألفي لذكرى الشيخ المفيد، قم، 1413 ه، وراجع: الحرّ العاملي محمد بن الحسن، إثبات الهداة بالنصوص والمعجزات، تحقيق أبو طالب تجليل، قم 1401 ه.
3 - التوحيد: 292. والأنعام: 78 و 83. ومحمّد: 19.
4 - أوائل المقالات: 11 - 12.
5 - تصحيح الاعتقاد بصواب الانتقاد: 26 - 27.
6 - تصحيح الاعتقاد بصواب الانتقاد: 28، مطبوع مع أوائل المقالات، تبريز، 1370 ه.

«16»

دور النقل

ذكرنا سابقاً أن العقل في منهج آل البيت (ع) على الرغم من دوره البارز في المعرفة الدينيّة، لا يستقلّ بالمعرفة ما لم يهتد بنور الوحي، وهذا ما لا ينكره أحد من المذاهب الإسلامية والمدارس الكلاميّة، وإنما الاختلاف في حدود الاعتماد على النقل، لأن النقل (المقصود به الحديث هنا لأن القرآن الكريم منقول بالتواتر) قد يصل إلينا بشكل حديث متواتر، أي ما لا يبقى أيّ مجال للشك فيه، لكثرة الناقلين والرواة، بحيث يطمئن الإنسان بصدور الحديث عن النبي (ص) أو العترة الطاهرة (ع) أو الصحابة الكرام، وقد لا يصل إلى هذا الحدّ، ويحصل منه ظنّ قويّ أو ضعيف، وقد يصل إلى درجة يسمّونه خبر الواحد، أي ما رواه شخص واحد وادّعى صدوره راو منفرد، فعند ذلك يحصل منه ظنّ، لا يبتعد عن الشك والجهل كثيراً.

إن منهج أهل البيت (ع)، في هذه الحالة عدم الركون والاعتماد على هذه الرواية، مالم تنضمّ إليها قرينة ووثيقة تثبت صدقها.

عدم الاعتماد على خبر الواحد في العقيدة

ويشتدّ الاحتياط عندهم حينما يتعلّق الأمر بمسائل العقيدة، فإنها لأهميتها لا يمكن أن يستدلّ لإثباتها بدليل ضعيف وحجّة واهية، خاصّة أن زماننا يبتعد عن زمن النبي (ص) والسلف الصالح بكثير، فعلينا أن نجتهد ونسعى في الاجتناب عن القول بالظن والخرص ونتمسّك باليقينيات أو ما يقاربها، حذراً من الوقوع في الفتن والخلافات الجدليّة التي تشكّل أكبر خطر على دين الأمّة وعلى وحدتها.

وفي ذلك يقول الشيخ المفيد:

وأقول: إنه لا يجب العلم ولا العمل بشيء من أخبار الآحاد، ولا يجوز لأحد أن يقطع بخبر الواحد في الدين، إلاّ أن يقترن به ما يدلّ على صدق راويه على البيان، وهذا مذهب جمهور الشيعة وكثير من المعتزلة والمحكّمة وطائفة من المرجّئة، وهو خلاف لما عليه متفقّهة العامة وأصحاب الرأي.(1)

وهذا يدّل على احتياط اتباع آل البيت (ع) في مسائل العقيدة، فإنهم (ع) أمروا أتباعهم بالاحتياط، وقالوا: "أخوك دينك فاحتط لدينك"، وقالوا: "أورع الناس من وقف عند الشبهة".

خاتمة المطاف

وبذلك نصل إلى نهاية جولتنا في منهج آل البيت (ع) في العقيدة الإسلامية فإنّ منهجهم كما تبيّن في الصفحات السابقة منهج متكامل، ولا يدع أداة من أدوات المعرفة إلاّ

---

1 - أوائل المقالات في المذاهب والمختارات: 100، تبريز، ايران، 1370 ه.

ويستخدمها في مجالها الخاص، فلا يتعدّى مثلاً بالتجربة إلى مجال المسائل الإلهية، وصفات الباري، لأنّها خارجة عن متناول هذه الأداة، ولا يجمد على واحدة من هذه الأدوات، مثلاً على الإشراق الباطني والذوق الصوفي، ولا يغالي في قيمة واحدة منها كالعقل ولا يجازف في كفاءتها لإدراك جميع الأمور بالاستقلال، حتى إذا تعلّق الأمر بالمغيّبات وتفاصيل المعاد، ولا يدّعي أن النقل (الوحي) يمكن أن يدرك بدون الاستضاءة بنور العقل، وكذلك لا يبادر إلى قبول كلّ ما جاء في صورة رواية وسنّة ونقل، ما دام لم يتحقق من صحّة انتسابه إلى الرسول (ص) أو إلى الصحابة أو الأئمة (ع)، وما لم يقارن بينه وبين سائر النصوص الثابتة وبين الكتاب العزيز، ويعرف الخاصّ من العامّ والناسخ من المنسوخ والمحكم من المتشابه والحقيقة من المجاز، وبتمام معنى الكلمة يؤكّد على الاجتهاد الذي هو بمعنى بذل الجهد واستفراغ الوسع في فهم المراد الشرعي من النصوص، وأخيراً لا يتحاشى النقد والمناظرة والمناقشة إذا خلت من إثارة لعواطف أو إيقاع لعداوة، بل هو دعوة إلى سبيل الرب، وجدال بالتي هي أحسن، وحكمة وموعظة حسنة، كما قال تعالى:

(والّذين آمنوا وعملوا الصّالحات لا نكلّف نفساً إلاّ وسعها أولئك أصحاب الجنّة هم فيها خالدون * ونزعنا ما في صدورهم من غِلّ تجري من تحتهم الأنهار وقالوا الحمد لله الّذي هدانا لهذا وما كنّا لنهتدي لولا أن هدانا الله لقد جاءت رسل ربّنا بالحقّ ونودوا أن تلكم الجنّة أورثتموها بما كنتم تعملون).(1)

عن مجلة رسالة الثقلين، السنة الثالثة، ربيع الثاني - جمادى الثانية، 1415 ه / 1994م.

---

1 - الأعراف: 42 - 43.